لعبة التطييف الأميركية في العراق وإدارة ملامح التقسيم

أ. م. د. سهام الشجيري*
باحثة وأكاديمية من العراق

* كلية الإعلام ـ جامعة بغداد.

تمهيد

اقترن وصف وزير الخارجية ومستشار الأمن القومي الأمريكي هنري كينسجر، بقوله: من أن «منطقة الشرق الأوسط جغرافية صغيرة وتاريخ محتشد» ببدأ معالم التخطيط الأمريكي لمستقبل هذه المنطقة الحيوية في كل شيء، ليس انتصاراً لطائفة دون غيرها، ولا لتسيد طائفة على غيرها، بل لإشعال المنطقة بحرب طائفية بغيضة، بحيث تتحول الطائفية إلى أداة تحليل سياسي فيها، وتتحول إلى موشور دقيق يعكس التناقضات داخل الأمة الواحدة، من أجل فرز ما يسمى بالمكونات ثم إشغالها بعضاً ببعض، ويبدو أن اللجوء إلى هذه السياسة ناتج من صعود مصطلح «الحرب الناعمة» في مقابل «القوة الناعمة»، باستعمال «القوة القاهرة» إذ تعني الأولى الحرب الخفية، الحرب بالوكالة، فيما تعني الثانية الدخول إلى العالم من باب متمثلة بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وتأثيرات إعلامية من أجل البقاء والنفوذ.

إن تسمية كل هذا العمل باللعبة فيه الكثير من التساهل، فالطائفية اليوم كمنهج عمل أمريكي في المنطقة العربية بوجه خاص، فهي ليست لعبة طائفية، بل هي استراتيجية ضخمة تهدف إلى إنهاك العرب بكل مقوماتهم الروحية والاقتصادية والعسكرية، ولذلك أرى في هذا التعبير بساطة، وعدم تقدير للواقع المريب الذي سوف يتمخض عن هذه السياسة البعيدة المدى، إنها استراتيجية وليست لعبة، فضلاً من أنها لعبة

الطائفية اليوم كمنهج عمل أمريكي في المنطقة العربية بوجه خاص، فهي ليست لعبة طائفية، بل هي استراتيجية ضخمة تهدف إلى إنهاك العرب .

الطائفية وليس الطوائف، وهو مصطلح ليس خاصاً بالعراق، بل هي لعبة أمريكية صهيونية، هدفها تحويل الوطن العربي إلى كانتونات وجيوش ضعيفة وثقافة انعزالية، الأمر الذي يقضي على كل نهضة للبلد، ومن ثم تحويل الكيان الصهيوني شريك وليس غريب، والذي يؤكد ما أقوله أن الطائفية تحولت اليوم في الوطن العربي، إلى مواقف دول وقاعدة صلبة لتخطيط السياسة الخارجية لكثير من الدول العربية، وهذا ينذر بحرب طائفية تشمل الوطن العربي كله، بل تشمل العالم الإسلامي بأجمعه، والغريب إنها حرب طائفية ذات دوائر متداخلة، فإذا كان هناك تجاذب واختناق وحروب طائفية بين السنَة والشيعة في العراق ولبنان وسوريا، فأن هناك حرب طائفية أضيق بين المكون السنَي بحد ذاته، والمكون الشيعي بحد ذاته، وهذا يعني أن الحرب الطائفية ربما تنذر بمسلسل حروب دامية تستهدف الجميع.

ليس هناك صراع طائفي حقيقي في المنطقة، بل هناك استراتيجية أمريكية صهيونية لإشعال العالم العربي والإسلامي، بحرب لا تنتهي إلا بإنهاء جميع الأطراف، بالأهداف الأربعة للولايات المتحدة الأمريكية والتي يمكن تشخيص ملامحها بالآتي:

أولاً: ضمان تدفق النفط إلى شركات التصنيع العالمية التي هي حليف عضوي للسكرتارية الأمريكية بصفتها أضخم وأخطر مؤسسة عالمية، أي المركب الصناعي التجاري الغربي بشكل عام والأمريكي بشكل خاص.

ثانياً: ضمان أمن الكيان الصهيوني كحليف عضوي استراتيجي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية والغرب، وتحقيق الحلم الصهيوني الكبير من أن تكون عضواً عادياً في المحيط العربي.

ثالثاً: إنهاء الإرادة العربية باتجاه أية نهضة فكرية وعلمية واقتصادية وسياسية.

رابعاً: تفتيت الأيديولوجيات المنتمية إلى روح الأمة العربية أو العالم الإسلامي، لتسهيل عملية السيطرة والاستحواذ على مقدرات شعوبها، والقضاء على عقيدتها[1].

ثانياً: برنامج القرن الأمريكي والقدرة المتاحة

إن مكانة الولايات المتحدة في النظام الدولي منذ نهاية الحرب العالمية

(1) يكتب شريعتي: (الأيديولوجيا عبارة عن عقيدة ومعرفة عقيدة، وهي بالمعنى الاصطلاحي، رؤية ووعي خاص يتوفر عليه الإنسان فيما يتصل بنفسه، ومكانته الطبقية، ومنزلته الاجتماعية، وواقعه الوطني، وقدره العالمي والتاريخي، وفئته الاجتماعية التي ينتمي إليها. وهي المسوّغة لهذه الأمور، والتي ترسم له مسؤولياته وحلوله وتوجهاته ومواقفه ومبادئه وأحكامه، وتدفعه بالتالي إلى الإيمان بأخلاق وسلوك ومنظومة قيم خاصة، فعلى أساس رؤيتك الكونية، وابتناءً على نمط (علم الاجتماع) و(علم الإنسان) و(فلسفة التاريخ) الذي تحمله، يمكن تحديد ما هي عقيدتك في الحياة، وفي علاقتك بنفسك وبالآخرين وبالعالم؟ كيف ينبغي العيش، وما الذي يجب فعله؟ أي مجتمع يتعين بناؤه، وكيف يتوجب تغيير نظام اجتماعي بشكل نموذجي، وما هي مسؤولية كل فرد حيال المجموع؟ وما هي صراعاته، وأواصره، وأشواقه، ومثله العليا، وحاجاته، ومرتكزاته العقيدية، وقيمه الإيجابية والسلبية، وسلوكه الاجتماعي، ومعايير الخير والشر لديه، وبالتالي ما هي طبيعة الإنسان وهويته الاجتماعية؟ وعلى هذا فالإيديولوجيا هي عقيدة تحدد الاتجاه الاجتماعي والوطني والطبقي للإنسان، وتفسر نظامه القيمي والاجتماعي، وشكل الحياة، والوضع المثالي للفرد والمجتمع، والحياة الإنسانية بكل أبعادها، وتجيب عن الأسئلة: (كيف تكون؟) و(ماذا تفعل؟) و(ماذا ينبغي فعله) و(كيف يجب ان نكون؟) (للمزيد انظر: علي شريعتي. الآثار الكاملة، ج11، ص242. 243).

الثانية، التي توجتها كقوة عظمى تملك أضخم قدرات عسكرية تقليدية ونووية، وتصل حصتها في الناتج الإجمالي إلى نحو 50 بالمئة، لكن الاهتزاز الأول الذي تعرضت له القوة الأمريكية في حرب فيتنام في أوائل السبعينيات، يعرض للهبوط التدريجي في نصيب الولايات المتحدة في الناتج الإجمالي العالمي إلى نحو 30 بالمائة في السبعينيات، وإلى 20 بالمائة في التسعينيات، ليصل انفجار الأزمة المالية في أيلول 2008، بعد حقبة الحرب الباردة حتى انهيار الاتحاد السوفياتي، مروراً بحقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي وهجمات 11 أيلول 2001، وإعلان «الحرب على الإرهاب» وإطلاق استراتيجية بوش للأمن القومي في 20 أيلول 2002، وصولاً إلى فشل هذه الاستراتيجية في العراق وأفغانستان، وتزاحم مشاريع النخب الهادفة إلى بلورة استراتيجية لمرحلة ما بعد (بوش)، التي غالباً ما تعكسها بحوث ودراسات معامل الفكر الأمريكي (Think Tanks).

فضلاً عن مشروع استراتيجية أمريكية بعد (بوش) الذي رعت مناقشاته جامعة برنستون الأمريكية تحت عنوان (تقرير برنستون للأمن القومي: صياغة عالم من الحرية في ظل القانون ـ الأمن القومي للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين)، في السنوات الثلاث الأخيرة من ولاية (بوش) الثانية، والتي شارك فيها نحو أربعمائة من خبراء السياسة الخارجية من مختلف التوجهات السياسية، لكن القرن العشرين لم يكن أمريكياً بالكامل كما يؤكد الكثير من الباحثين في الشأن الأمريكي، إذ إن التراجع الأمريكي لا يعني بالضرورة أن الولايات المتحدة فقدت دورها القيادي، بقدر ما يعني صعود دول أخرى (أكثر من 124 دولة حققت نمواً بمعدل 4 بالمائة وأكثر).

إن التراجع الأمريكي لا يعني بالضرورة أن الولايات المتحدة فقدت دورها القيادي، بقدر ما يعني صعود دول أخرى.

ولذلك فأن التحديات أمام إدارة أوباما كبيرة ومتعددة، بسبب تركة (بوش) الثقيلة من استمرار الحرب في أفغانستان والعراق، والحرب المفتوحة على الإرهاب، إلى استفحال الجماعات الإرهابية في سوريا والعراق واستيلاؤها على بعض المدن المهمة، فضلاً عن ملفي كوريا الشمالية وإيران النوويين، وأزمة الشرق الأوسط والخلاف مع روسيا بشأن اوكرانيا، وقبلها بشأن نشر الدرع الصاروخي الأمريكي في صياغة النظام الدولي في المرحلة المقبلة، مع صعود قوى كبرى إلى المسرح الدولي، فضلاً عن الأزمة الاقتصادية من عجز في الموازنة يقدر بنحو تريليون دولار، إلى كساد اقتصادي وبطالة ترتفع

أرقامها، وهو ما يؤكده تقرير الاستخبارات القومية الأمريكية الصادر في تشرين الأول عام 2008، الذي يؤكد على تراجع الدور الأمريكي في العالم وتقرير برنستون للأمن القومي، الذي يؤكد على: (فشل استراتيجية إدارة بوش التي قامت على عسكرة السياسة الخارجية). . . .، وأن تحديات عدة تواجه أوباما من بينها العجز العربي المزمن للنظام العربي الرسمي، وافتقاره إلى وسائل الضغط على المصالح الأمريكية، أما التحدي الأبرز الذي يحدَ من التغيير، فيكمن في وجود مراكز ومؤسسات وتيارات ونخب فكرية وسياسية ـ سواء كانت تنتمي إلى مدرسة الواقعية أو المثالية ـ ، ما تزال ترفض التخلَي عن مبدأ التفوَق أو الهيمنة، وتتمسك في مراجعتها لمبدأ القوة، بإبقاء الهيمنة العسكرية للديمقراطيات الليبرالية، مع الإصرار على الدور القيادي للولايات المتحدة والتعاون مع الآخرين بوصفهم قوى معونة.

سئل (أوباما) خلال قمة «العشرين» في لندن عن رأيه في القول: إن سلطة الولايات المتحدة حول العالم تراجعت، فأجاب أن «بعضاً من هذه الخسارة كان حتميا.

وهنا تكمن الإشكالية، إذ أن الذين يعارضون التخلي عن قوة أمريكا المهيمنة يقرَون في الوقت نفسه، بأن العالم لن يكون في القرن الواحد والعشرين على ما كان عليه في القرن العشرين، ولن يكون وضع أمريكا بالتالي مثلما كان، وعليه، هل تستوعب الولايات المتحدة الأمريكية الواقع الجديد؟.

لقد سئل (أوباما) خلال قمة «العشرين» في لندن عن رأيه في القول: إن سلطة الولايات المتحدة حول العالم تراجعت، فأجاب أن «بعضاً من هذه الخسارة كان حتميا»، وأن بعضه الآخر سببه أعمال الإدارة الأمريكية السابقة، وأضاف: «أعتقد أنه مع انتخابي والقرارات التي اتخذناها، بدأنا نرى استعادة لهيبة أمريكا في العالم»، والحديث عن **استعادة الهيبة الأمريكية، لا يمكن فصله عن التمسك بمبدأ التفوق أو الدور القيادي للولايات المتحدة الأمريكية.**

ثالثاً: القوة الساحقة للوصول إلى الطائفية

يقول نابليون: «إن إنساناً مثلي لا يحفل بحياة مليون إنسان»، إنَه طاعون مدمر يسكن عقول المستعمرين قديماً وحديثاً، إذ كان يعمل السيف في إبادة مدن كاملة تجتاحها جيوش غازية، وكان صاحب الجند يعطي المدن لعساكره ثلاثة أيام ليقتلوا من يشاؤون، ثم يغتصبون النساء، ويحرقون

البيوت والزرع، ليعود بعد ذلك واقفاً فوق ركام الدم والخراب رافعاً راية النصر نيابة عن الإنسانية، يذكرنا ذلك باللحظة التي وقف فيها الرئيس الأمريكي جورج بوش على ظهر حاملة الطائرات أبراهام لينكولن، ليعلن انتهاء العمليات العسكرية الأساسية في العراق أول أيار 2003.

إن تصميم «القوة الساحقة» أو «القوة القاهرة»، قد تحول إلى نمط من الحرب الشاملة التي أخذت في هذا العصر مفهوماً غامضاً، هو «الحرب على الإرهاب» أو الحروب المحلية التي تقود إلى انعدام الاستقرار الجيو ـ سياسي، كي تولَد حلقة مستمرة من الحاجة إلى ممارسة القوة والوصول إلى قمة هرم النظام الدولي، مع الإمساك بمصادر التفوق وممارسة ذلك في الواقع، إذ تعتقد أية إدارة أمريكية أنها تستطيع أن تحقق خلالها مكاسب سياسية داخلية وخارجية[2].

(2) زبيغنيو بريجنسكي، الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم، ترجمة: عمر الايوبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004.

ومنذ أن حاولت بريطانيا ترسيخ هذه الفوارق عند احتلال العراق في أثناء الحرب العالمية الأولى، وجدت جداراً عراقياً صلباً ضد هذه المحاولات، إذ قبل الشيعة العراقيون بملك سنَي، كقادة شيعة مثل محمد مهدي كبة (حزب الاستقلال) وجعفر ابو التمن (الاهالي) وفؤاد الركابي (حزب البعث) ولمسيحي مثل فهد يوسف سلمان، ومن بعده قادة شيعة وأكراد (الحزب الشيوعي) وسنَة مثل كامل الجادرجي، وحسين جميل، ومحمد حديد، أن يرأسوا ويقودوا أحزاباً جماهيرية علمانية ضمت كل الطوائف والمذاهب والاديان والقوميات؟ وهذه الحالة أستمرت حتى الاحتلال الذي سهل وشجع عملية الفرز الطائفي وأعدها من سمات المجتمع العراقي، وإن تم تصوير هذا الأمر بالمقبول.

فإن واقع الحال بدأ يختلف بعد مرور إحدى عشرة سنة على الاحتلال وانسحاب قواته نهاية عام 2011، ولم يبق من يؤيد الفرز الطائفي إلا المستفيدين منه، وتقف على رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية والاحزاب الطائفية من جميع الطوائف والعشائرية الضيقة الحاكمة والمتنفذة بدعم أمريكي كامل، فأصبحت الطائفية إلى جانب الإرهاب من الكلمات المفتاحية الأساسية في حرف طبائع الصراع، وأداة فعالة تستخدمها الأنظمة والجماعات لتحقيق أهداف إيديولوجية وسياسية، وكانت

لم يبق من يؤيد الفرز الطائفي إلا المستفيدين منه، وتقف على رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية والاحزاب الطائفية من جميع الطوائف والعشائرية الضيقة الحاكمة والمتنفذة.

الولايات المتحدة تشجع على استبدال النظام السياسي بتقسيم طائفي للعراق وحصص طائفية في الحكومة، وهو ما أكده (بريمر) في كتابه (عام قضيته في العراق) ومحاولته توحيد قوى المعارضة العراقية، والتي تحولت بعد الاحتلال إلى حكومة حول تفاصيل تقسيم العراق، إذ بدأت مرحلة «التدمير الخلاق» في المجال السياسي العراقي، واستندت إلى حملات إعلامية غير مسبوقة موجهة إلى الرأي العام العالمي والعراقي، اعتمدت على مصطلحات طائفية، وعلى هويات وهمية، تضمنت مبالغات كبيرة في توصيف الأحداث وكما يأتي:

1 ـ «تم قتل الأكراد بواسطة الغاز» ومن ثم يجب حمايتهم وإعطاؤهم حقوقاً خاصة، وذلك في الواقع هو مقدمة للانفصال ولتفتيت الدولة العراقية، رغم بشاعة ما تعرض له الأكراد فعلاً من قبل النظام السابق.

2 ـ «الشيعة هم الأغلبية» إذ إنَهم مقموعون، ليس فقط من قبل نظام (صدام)، وإنَما أيضاً طوال تاريخهم، والعملية الديمقراطية ما هي ببساطة إلا بشائر العدالة الاجتماعية، لتغيير حال الشيعة نحو الأفضل.

3 ـ «السنَة هم المجرمون» و«يعارضون» «العراق الجديد» بسبب فقدانهم الامتيازات وسلطتهم في قمع الآخرين.

4 ـ «العراق هو تكوين صناعي» مكَون من ثلاث مناطق منسجمة: الأكراد في الشمال، والسنَة في الوسط، والشيعة في الجنوب، فهذه الدعاية تحمل في داخلها تشويشا مقصودا للفرق بين الهوية الأثنية والهوية الطائفية: الشيعة والسنَة ليسوا عرباً ولا اكراداً، الأكراد ليسوا مسلمين، لا شيعة ولا سنَة، ولا يوجد شيء اسمه «العراقيون»، وإنَما فقط هناك خليط بين السنَة والشيعة والأكراد، أما باقي مكوَنات المجتمع العراقي، من تركمان وآشوريين ومسيحيين ويزيدين وصابئة، فقد تم تجاهلهم تماماً، إذ أن هدف هذه الدعاية هو تسهيل تدمير الولايات المتحدة للدولة العراقية، وتهيئة المسرح العام من أجل تدشين عراق مقسَم.

اعترفت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون صراحة في كتابها (خيارات صعبة) بعلاقة بلادها بالتنظيمات المتطرفة.

5 ـ غضَ النظر عن ظهور تنظيمات متطرفة، والترويج لأفعالها الوحشية اتجاه من يخالفها أو ينتقدها، وقد اعترفت وزيرة الخارجية الأمريكية

هيلاري كلينتون صراحة في كتابها (خيارات صعبة) بعلاقة بلادها بالتنظيمات المتطرفة، مما يؤكد مثل هكذا حقائق، كما استمدت الطائفية جذورها من سجون الاحتلال الأمريكي الذي عدَّ مصنع للجماعات الارهابية، كسجن غوانتنامو، أو سجن بوكا أو غيرهما، بحسب مراقبين.

رابعاً: الترويج لفكرة التقسيم

كشف (كرانجيا) الصحافي الهندي المعروف المخطط المرسوم لتقسيم المنطقة المحيطة بفلسطين المحتلة في الخمسينات، إذ استطاع سرقة بعض وثائق حلف بغداد التي تتحدث عن المخطط الصهيوني في ذلك، وقد بدأت بوادر تقسيم هذا المحيط بشكل واضح، فمشروع الأقاليم في العراق بداية تقسيم، وهناك طروحات حول دولة علوية ودولة سنَية في سوريا، ولما كان الولاء في لبنان إلى الطائفة قبل الولاء إلى الوطن يكون التقسيم حقيقة فعلية، وتقسيم السودان إلى سودان شمالي وسودان جنوبي، أصبح أمراً واقعاً وتم تنفيذه، ونزعات تقسيم ليبيا على شكل أقاليم عشائرية مشروع مطروح بالفكر والسلاح، إذ لم يكن التقسيم استراتيجية جديدة في خانة التخطيط الغربي اتجاه الآخر.

واستعملت الولايات المتحدة كذبة أسلحة الدمار الشامل لتنفيذ مخططها للتقسيم، فالمعلومات حول أسلحة الدمار الشامل في العراق واستغلال تلك المعلومات للحضَ على الحرب، ويشير مطلعون على بواطن البيت الابيض، وكانوا قد نشروا «مذكراتهم» مثل وزير الخزانة الأسبق بول أونيل، وأحد أساطين مكافحة الإرهاب ريتشارد كلارك، إلى أن هناك أجندة منذ اليوم الأول، إذا جاز التعبير لغزو العراق.

أما أحداث الحادي عشر من أيلول فإنها ببساطة، منحت الإدارة العذر الذي كانت بحاجة إليه، واعتراف رجال السياسة الأمريكية بخلو العراق من أسلحة الدمار الشامل، وعدم وجود أية علاقة للنظام بتنظيم القاعدة، وزيف وكذب لجان التفتيش ودورها السيء الذي قام به رؤساؤها والمنفذون فيها مثل إيكيوس، وباتلر، وريتر، و(هانز بليكس)، إذ إن تقارير وتصريحات هذه اللجان كانت السبب وراء الاعتداءات المتكررة على العراق، ومن ثم احتلاله وتدميره، كما أكد المركز العام للنزاهة الأمريكي في تقريره الصادر في كانون ثاني عام 2008، أن القادة الأمريكيين عسكريون أكانوا أم مدنيين

الأسباب التي أدت إلى اختيار العراق هدفاً للتدمير، تعكس ثلاثة مستويات سياسية (كونية وإقليمية ومحلية).

منهم (رامسفيلد) و(تشيني) و(كونداليزا رايس)، و(كولن باول)، و(ولفوفيت)، و(فليشر) وغيرهم، والرئيس (بوش) على رأسهم، أدلوا بأكثر من ألف وخمسمائة تصريح كاذب وغير صحيح عن امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، وعن علاقة النظام العراقي السابق بتنظيم القاعدة لتبرير الحرب المدمرة على العراق واحتلاله.

فضلاً عن الوضع الاقتصادي القاهر للعراقيين بسبب الحصار، مما أدى إلى استقالة المديرين المسؤولين عن برنامج الأمم المتحدة لتوزيع الغذاء، وهما أيرلندي والماني، احتجاجاً على الوضع المأساوي للحالة العراقية، وما سبَبه الحصار الظالم للشعب العراقي الذي تسبب في وفاة أكثر من مليون ونصف المليون إنسان.

خامساً: أدوات التقسيم وترسيخ الطائفية

هناك عدة مجموعات أساسية من الأسباب التي أدت إلى اختيار العراق هدفاً للتدمير، **تعكس ثلاثة مستويات سياسية (كونية وإقليمية ومحلية)**، تكوَن معاً استراتيجية إمبريالية شاملة للتقسيم وترسيخ أسس التطرف والمغالاة والطائفية، ويرتبط كل عنصر فيها بالآخر، بل يعتمد عليه أيضاً وهي[3]:

(3) إيان دوغلاس، الولايات المتحدة في العراق: جريمة ابادة جماعية، وثائق إدانة احتلال العراق.

أولاً: تأكيد الهيمنة الجيوسياسية الكونية للولايات المتحدة: إنها «منطقة تكفي مواردها إذا تمت السيطرة الكاملة عليها لتوليد قوى كونية»، فالسيطرة على منطقة الشرق الأوسط وأوراسيا أمر ضروري لأية محاولة للهيمنة على العالم، حتى عام 1989 كان تفوق الولايات المتحدة معطلاً من الاتحاد السوفياتي، وعلى الرغم من الوجود الاقتصادي والسياسي للولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط، إلا أن سيطرة الولايات المتحدة كانت افتراضية وليست فعلية، ففي حديثه إلى الشعب الأمريكي في عام 1980، لخصَ الرئيس (جيمي كارتر) هموم الولايات المتحدة في الحرب الباردة بشأن الشرق الأوسط بما يأتي: «أية محاولة من قبل قوى خارجية للسيطرة على الخليج العربي، ستعد اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة، وسنواجه ذلك بكل الوسائل الضرورية بما في ذلك القوة العسكرية» وقبل ذلك في عام 1979، كان (كارتر) قد أنشأ فعلاً قوات الانتشار السريع المشتركة كرد فعل للغزو السوفياتي لأفغانستان، وهي عبارة عن تجمع خاص

أية محاولة من قبل قوى خارجية للسيطرة على الخليج العربي، ستعد اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة.

من القوات الأمريكية جاهزة لإمكانية الانتشار في الشرق الأوسط، كما عمل (ريغان) في عام 1983 على تدعيم قوات الانتشار السريع كقوة مركزية للولايات المتحدة، وبحلول أواخر عام 1989 ومع سقوط حلف وارسو وتفتت الكتلة السوفياتية، أصبحت الولايات المتحدة غير مهددة في أكثر مناطق العالم أهمية من حيث موقعها الجيو ـ سياسي والجيو ـ اقتصادي، وهكذا أصبح من الممكن التفعيل الكامل للأهداف التي طالما كانت مكبوتة بفعل الحرب الباردة.

ثانياً: النفط سلاح للسيطرة وتحقيق الأهداف: مازالت كلمات هنري كيسنجر: «إن النفط سلعة على درجة من الأهمية، بحيث لا يمكن تركها في يد العرب» عالقة في الأذهان، إذ كانت تلك الكلمات تلخص السياسة الأمريكية التي ظلت غير معلنة حتى عام 1990، فقد أصبحت سياسة معلنة منذ انهيار حلف وارسو، كما أن نظامي العقوبات الذي بدأ في عام 1990، وبعد حرب الخليج عام 1991، هما بمثابة نقطة الانطلاق بالنسبة إلى خطة الولايات المتحدة للتحكم بشأن الأسباب وراء احتلال العراق للكويت، قانونياً، لم يكن للعراق الحق في غزو الكويت، لكن نظام العقوبات الذي تبنَاه مجلس الأمن، وسرعة تنفيذه وقسوته والنتائج المترتبة عليه، كل ذلك يقدم الدليل على وجود خطة مسبقة في عام 1990 لتدمير العراق، وليس فقط وضع حدَ لاحتلال الكويت، وإذا كان الاحتواء هو الفلسفة الاستراتيجية للحرب الباردة، فأن الإخضاع والاستبدال أصبحا الفلسفة السائدة منذ عام 1990، فقد أصابت العقوبات قلب العراق.

ثالثاً: الموقع الجيوسياسي والتحكم باقتصاديات العالم: يأتي التساؤل لماذا العراق بالذات؟ ففضلاً عن كونه متحكماً في ثاني أكبر احتياطي نفط في العالم، فإن الإجابة تكمن في موقعه الجيو ـ سياسي، إقليمياً «العراق بمثابة مفترق طرق، فأراضيه توفر الطريق للوصول إلى ايران وسوريا وتركيا والأردن والمتوسط، وإذا كانت الولايات المتحدة تسعى للسيطرة على الاقتصاد العالمي، فإنها لا تستطيع أن تفعل ذلك سوى عن طريق فرض نفسها كوسيط بين العراق وأوربا والصين، وكما قال (بول وولفوفيتز) و(ديك تشيني) وزير الدفاع الأمريكي في عام

نظام العقوبات الذي تبنَاه مجلس الأمن، وسرعة تنفيذه وقسوته والنتائج المترتبة عليه، كل ذلك يقدم الدليل على وجود خطة مسبقة في عام 1990 لتدمير العراق.

1992، فإن الأمر يتعلق بـ«منع ظهور أي منافس عالمي محتمل في المستقبل».

رابعاً: تفتيت الأيديولوجيات: يقول جون دين (المستشار السابق للرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون)، في كتابه «محافظون بلا ضمير»: «إن أجندة المحافظين الجدد تتطابق مع أجندة أخرى متطرفة، وهي أجندة الأصوليين في اليمين المسيحي، فقيادة الحزب الجمهوري الآن ـ كما الحزب الشيوعي السوفيتي سابقاً ـ متشبعة بأيدولوجيات رسمية، و(بوش) نفسه سقيم الفكر، ذو شخصية يمينية متطرفة وسلطوية، وهو ومن حوله يعتقدون أنهم «رسل العناية الإلهية»، فقد بات واضحاً على نحو مقلق أن العالم واقع في خضم حرب أيديولوجية، وإن النضال من أجل الديمقراطية في مواجهة النزعة المتطرفة، إنما هو في جوهر النضال من أجل قيم ومن سخرية الأمور؛ أن الكثير مما كان يجري أو يمول على الصعيد الأيديولوجي، باسم الدين والاسلام قد أسهم إسهاماً لا يستهان به في ممارسة التطرف والغلو، وقد وفرت بعض الفتاوى الدرع الواقي ووفرت البرامج والفرص العديدة للترويج لتلك الأفكار.

الاستقرار هو مهمة أمريكية لا تستحق شيئاً، كما أنَه مفهوم ضال لا يجوز ترويجه، نحن لا نريد الاستقرار في إيران وسوريا ولبنان والعراق ولا حتى في السعودية.

خامساً: الترويج لفكرة التقسيم: عبَر (مايكل ليدين) العضو المؤسس في المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي، وهو من بين المحافظين الجدد البارزين، عن «الحقيقة الأمريكية في التقسيم سنة 2002 بقوله: «الاستقرار هو مهمة أمريكية لا تستحق شيئاً، كما أنَه مفهوم ضال لا يجوز ترويجه، نحن لا نريد الاستقرار في إيران وسوريا ولبنان والعراق ولا حتى في السعودية، إذ أن لب الأمر هو ليس ما إذا كنا نهدَد ذلك الاستقرار أم لا، وإنما السؤال هو كيف نهدَد ذلك الاستقرار؟.

إن (التدمير الخلاق) هو الاسم الوسط بالنسبة إلينا، لطالما كره أعداؤنا زوابع الطاقة والإبداع التي تهدد تقاليدهم (بغض النظر عن طبيعة تلك التقاليد)، ويجب أن ندمَرهم لكي نتقدم في مهمتنا التاريخية»، إذ إن الحفاظ على العراق بالذات في حالة عدم استقرار هو أمر جوهري، بالنسبة إلى الخطط الاستراتيجية للولايات المتحدة في المنطقة العربية بأسرها، فقد كتب (كنعان مكية) كتابه (جمهورية الخوف) عن ما أرتكبه النظام السابق من أجل

التأثير في المحافظين الجدد، والذي كان ممن أيدوا غزو العرق بحماسة وجرى استقباله في البيت الأبيض، كتب أخيراً بمرارة وألم: «كان الخطأ الأمريكي الأول والأكبر هو فكرة الولع بالاحتلال وتمزيق العراق وتقسيمه بعد تدميره نهائياً»، إذ أن مشروع الاحتلال الأمريكي مشروع إمبريالي هدفه السيطرة على نفط العراق، واستعمال العراق قاعدة استراتيجية، وهذا لا يتحقق إلا بتقسيم العراق وأقلمته أو فدرلته أو صوملته أو لبننته، فضلاً عن ترويج حصيلة من الفتاوى الجافة والفقه الصحراوي الذي أنتج الجماعات المسلحة المتطرفة.

سادساً: الرغبة في تغيير العالم بالحرب على الإرهاب وبفرض القوة القاهرة: يذكر(بريجنسكي) في كتابه (الفرصة الثانية) (The Second Chance) الصادر عام 2007، وفي مجال شرح نوايا المحافظين الجدد من الحرب على العراق ما نصه: «استراتيجياً، فإن الحرب على الإرهاب، عكست اهتماماً إمبريالياً تقليدياً للسيطرة على موارد الخليج العربي، وإنها مثلت رغبة المحافظين الجدد في إعلاء وتدعيم الأمن (الإسرائيلي)، عن طريق إنهاء العراق كخطر يهددها»، والقضاء على مقومات الدولة العراقية بحل الجيش والقوات الأمنية، ونهب أسلحتها وحرق ونهب وزاراته ومؤسساته المختلفة بسجلاتها ومعلوماتها، وكذلك تدمير وحرق ونهب مكتباته العامة وآثاره، واغتيال وتشريد علماؤه ومفكريه.

سابعاً: استراتيجية موحدة للإبادة الجماعية: لضمان تفوق الولايات المتحدة، كاد العراق أن يصبح الاقتصاد الواحد والخمسين للولايات المتحدة، إن ذلك لا يمكن إلا أن يعني الإبادة الجماعية، فما من سبيل آخر يمكّن الولايات المتحدة من التحكم في كل ما كان على مدى 6000 عام وحدة جيوسياسية وقلعة للقومية العربية طوال القرن العشرين، ما سبيل آخر تستطيع به الولايات المتحدة أن تنتزع من العراقيين المصدر الأساس للرفاهة المادية والرفاهة في المستقبل، ولا أن تفرض على ثقافتهم فكرة الملكية الأجنبية لثروات بلادهم، إذ إن تدمير الدولة العراقية لن يكون كافياً، وللسيطرة على العراق، في موقعه المركزي، لا بدَّ من تدمير هويته العربية الاسلامية، لا بدَ من محوه تماماً كشعب، وتنفيذ قرار تقسيمه، ليكون شعوباً متعددة.

ثامناً: تحطيم العراق كدولة وشعب واستبدال الدولة بثلاثة كيانات متصارعة وضعيفة أو أكثر، وبذلك تكون الانتماءات الاثنية والطائفية بمثابة المقدمة لتدمير الهوية العربية الإسلامية للعراق. إن الطائفية لا علاقة لها في الواقع بتعدد الطوائف أو الديانات، إذ من الممكن تماماً أن يكون المجتمع متعدد الطوائف الدينية أو الأثنية، من دون أن يؤدي ذلك إلى نشوء دولة طائفية أو سيطرة الطائفية على الحياة السياسية، ومن ثمَّ لتقديم هذا الولاء على الولاء للدولة والقانون الذي تمثله، إذ أدخلت البلاد والمنطقة في (فوضى خلاقة) من الحروب الطائفية والعرقية والمذهبية والقومية، تنفيذاً لمشروع (برنار لويس) في تفتيت وتقسيم المنطقة إلى دويلات وطوائف وكانتونات لأمراء الحرب والطوائف، نتج عنه الإرهاب الدولي الذي صنعته الولايات المتحدة الأمريكية بأيديها، وهو ما تؤكده مطالبة ابي بكر البغدادي في أول خطبة له في جامع بالموصل بعد الاستيلاء عليها، بـ (تفجير براكين الجهاد) أي الحرب الطائفية في كل مكان.

تكون الانتماءات الاثنية والطائفية بمثابة المقدمة لتدمير الهوية العربية الإسلامية للعراق.

كل ما سبق مجتمعا يمثل السياق والدوافع الاستراتيجية ـ الكونية والإقليمية والمحلية ـ ، التي كانت وراء تدمير دولة وشعب العراق، فلا يمكن النظر إلى أي من تلك الجوانب منفصلاً عن الأخر، إذ إن كل واحد منها يدعم الأخر، ومن خلال مجموع الأفعال التي تلتقي مع تلك الأهداف الاستراتيجية الواسعة، يمكن أن نقتفي أثر «القصد في التدمير» لدى الولايات المتحدة، في حين يشير الترابط العام بين تلك الأسس الاستراتيجية للولايات المتحدة إلى «التدمير المتقصد» للعراق، كنتيجة منطقية لسياسة استراتيجية أمريكية مستقرة اتجاه الشرق الأوسط والعالم، فالولايات المتحدة كان لديها من الأسباب ما يجعلها ترغب ـ في سياق منطقها الخاص ـ في تدمير العراق كدولة وشعب، أما الوسائل التي استعملتها في تدمير الدولة، وفي محاولتها تدمير الشعب، فإنها تنبع من تلك الأسباب وتتوافق معها.

ثامناً: مشروع التقسيم وملامحه

مطالبة ابي بكر البغدادي في أول خطبة له في جامع بالموصل بعد الاستيلاء عليها، بـ (تفجير براكين الجهاد) أي الحرب الطائفية في كل مكان.

يقول فرانسيس فوكوياما في كتابه «أمريكا على مفترق طرق»: «جاءت إدارة (بوش) إلى البيت الأبيض من منطلق عقائدي، متحيز ومتصلب ضد الأمم المتحدة والمنظمات

الدولية، ومنها محكمة العدل الدولية. كما أساءت توصيف ما زعمت أنّه خطر إسلامي يواجه الولايات المتحدة، والحقيقة أن عدداً كبيراً من غلاة الداعين إلى الحرب مثل (بول وولفوفيتز، ودوغلاس فيث، وريتشارد بيرل كانوا من اليهود)، فمشروع برنارد لويس لتقسيم الدول العربية والإسلامية، والذي اعتمدته الولايات المتحدة لسياستها المستقبلية هو ما يعبر عن ذلك ويستند إلى:

1 ـ في عام 1980 والحرب العراقية الإيرانية مستعرة صرح مستشار الأمن القومي الأمريكي «بريجنسكي» بقوله: «إن المعضلة التي ستعاني منها الولايات المتحدة من الآن (1980)، هي كيف يمكن تنشيط حرب خليجية جديدة تستطيع من خلالها تصحيح حدود «سايكس ـ بيكو».

2 ـ عقب إطلاق هذا التصريح وبتكليف من وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» بدأ المؤرخ الصهيوني المتأمرك «برنارد لويس» بوضع مشروعه الشهير الخاص بتفكيك الوحدة الدستورية لمجموعة الدول العربية والإسلامية جميعاً كلاً على حدة، ومنها العراق وسوريا ولبنان ومصر والسودان وإيران وتركيا وأفغانستان وباكستان والسعودية ودول الخليج ودول الشمال الإفريقي.. إلخ، وتفتيت كل منها إلى مجموعة من الكانتونات والدويلات العرقية والدينية والمذهبية والطائفية، وقد أرفق بمشروعه المفصل مجموعة من الخرائط المرسومة تحت إشرافه، تشمل جميع الدول العربية والإسلامية المرشحة للتفتيت، بوحي من مضمون تصريح «بريجنسكي» مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس «كارتر».

إن المعضلة التي ستعاني منها الولايات المتحدة من الآن (1980)، هي كيف يمكن تنشيط حرب خليجية جديدة تستطيع من خلالها تصحيح حدود «سايكس ـ بيكو».

3 ـ في عام 1983 وافق الكونجرس الأمريكي بالإجماع في جلسة سرية على مشروع الدكتور «برنارد لويس»، وبذلك تمَّ تقنين هذا المشروع واعتماده وإدراجه في ملفات السياسة الأمريكية الاستراتيجية لسنوات مقبلة.

ولو عدنا لعشرين عاماً للخلف نجد أودينون المفكر الإسرائيلي قال: إن قوة إسرائيل ليست في سلاحها النووي، لأنه يحمل في طياته موانع استعماله بعودة الغبار الذري على (إسرائيل)، لكن قوتها في تفتيت قوة الثلاث دول الكبرى مصر، إيران، العراق، إلى دويلات متناحرة على أسس دينية وطائفية.

إن نجاحنا في هذا الأمر لا يعتمد على ذكائنا بقدر ما يعتمد على غباء الطرف الآخر، والمؤسف أن الحكمة غائبة عن القادة بقدر كبير، وقد رأينا تفتيت العراق وسوريا، وحالياً يعملون على تفتيت دول أخرى، فمن وجهة النظر الأمريكية ومؤسساتها المختلفة الذي تروج له، بأن الدعم المادي والمعنوي اللامحدود للكيان الصهيوني، هو عمل يرضي الرب، وإلزام إيماني وديني يفرضه الإنجيل، ويحقق مصالح الولايات المتحدة في الحاضر والمستقبل، إذ تأكدت هذه الحقائق على لسان كتَاب مسيحيين ومسلمين أيضاً.

وأكد بعضهم أن القناعات الدينية للرئيس بوش الأبن، هي صاحبة الدور الأساس في تحديد موقفه الداعم لـ(إسرائيل)، وإن ما يفعله في إطار هذا الموقف لم يصدر عن رغبة في التقرب إلى اليهود فحسب، لكنه كان أيضاً رغبة في التقرب إلى الله، حتى كان عنوان غلاف مجلة نيوزويك في 11/ 3/ 2003 قبل احتلال العراق بأيام، في كلمتين أثنين هما: «بوش والرب» وفي الداخل خصصت المجلة حوالي 12 صفحة، استعرضت فيها الجانب الإيمانية في حياة الرئيس الأمريكي، الذي بعد أن هداه الله وكف عن الشقاوة عدَّ نفسه من بين الذين «ولدوا من جديد»، وهذه ليست صفة ولكنها عنوان لجماعة تحمل ذلك الاسم وتضم 64% من أبناء الشعب الأمريكي.

أن الدعم المادي والمعنوي اللامحدود للكيان الصهيوني، هو عمل يرضي الرب، وإلزام إيماني وديني يفرضه الإنجيل.

لذلك فإنه قبل أن يترشح للرئاسة جمع نفراً من القساوسة لينال بركتهم، بعدما أخبرهم: أنه تمت دعوته لكي ينشد منصباً أرفع، وفي أثناء تولى منصبه وهو يتصرف كمبشر، يتولى منصب القيادة ويفسر الأحداث تفسيراً غيبياً، وهؤلاء الإنجيليون الذين ولدوا مرة ثانية أصوليون بامتياز، إذ يعدون النبوءات التوراتية عموداً فقرياً لرسالتهم، ومن خلالها يقرأون التاريخ ويفسرون أن العالم سينتهي قريبا، وأن المعركة الفاصلة التي ستكون علامة النهاية تعارضها الكنائس الكاثوليكية والارثذوكسية والانجيليكانية، وتعد أطروحاتها (هرطقة لا تستحق المناقشة لاهوتياً)، ويرون أن نهاية العالم المحققة للنبوءات التوراتية بدأت عام 1948، مع إنشاء الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، ذلك أن تجمع اليهود على أرض الميعاد هو في نظرهم إرادة عليا، القصد منها الإعداد للمعركة الفاصلة بين قوى الخير(إسرائيل

والولايات المتحدة)، وقوى الشر التي تضم كلا من العرب والمسلمين والأوربيين، وأيضاً الأمم المتحدة، وستنشب المعركة بحسب النص التوراتي الذي يقرأونه، في مرج أبن عامر شمال فلسطين (هرمجيدون أو وادي الملح)، في تلك المعركة سيجري تدمير الأرض، وهو ما يشير إلى عودة المسيح ليحكم العالم الف سنة.

أما اليهود فما عليهم إلا أن يشهروا إيمانهم بالمسيحية ولو قبل دقائق من وقوع الكسوف الأخير، وذلك بأن يقوموا بنسف المسجد الأقصى لكي يبنوا مكانه الهيكل الثالث، تكفيراً عن إنكارهم الطويل لحقيقة أن (عيسى بن مريم) هو المسيح الحق، والكاتبة الأمريكية جريس هالسل التي الفت كتابين عن الأصوليين الإنجليين، أو ما يسمى بـ«الصهيونية المسيحية» تحدثت في كتابها «يد الله» عن الحضور الإعلامي القوي لتلك الحركة في الولايات المتحدة، فذكرت أنها تملك وتشرف مباشرة على مائة محطة تلفزيونية وألف محطة إذاعة، ويتسع نشاطها الكنسي على نحو مثير للانتباه، حيث يبشر بتعاليمها ثمانون ألف قسيس، وفي الثمانينيات وحدها تم إنشاء 250 مؤسسة وجمعية دينية في الولايات المتحدة، مؤيدة للكيان الصهيوني في إطار الرؤية الصهيونية المسيحية.

تاسعاً: القوة الناعمة.. بيئة التقسيم

كان (جوزيف غوبلز) وزير الدعاية في المانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية، يدعو المواطن الألماني إلى فتح نوافذ بيته، ورفع صوت المذياع بقوة لكي تستطيع الأفكار التي يبثها الوصول إلى أذن كل الماني واختراقها، سواء أكان راغباً في الاستماع أم لا، كان تعامل عامة الناس مع ما كان يقوم به غوبلز، لا يتعدى مجرد كونه نوعاً من أنواع الإزعاج المبالغ فيه، أما اختصاصيون الإعلام والاتصال في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها فطنوا إلى ما لم يفطن إليه الكثير من الناس العاديين، من خلال المتابعة والرصد والدراسة لأسلوب تعامل غوبلز مع الجهاز العبقري الحديث النشأة المذياع، التفت هؤلاء الخبراء إلى أن غوبلز كان بصدد تشكيل شيء غير مسبوق في تاريخ البشرية، لقد كان يصوغ مبادئ وأفكاراً لأمة كاملة، ليقتنع ويضحي من أجلها الملايين من الألمان على نحو الذي حدده الحزب النازي[4].

(4) جمال الزرن، تدويل الإعلام العربي الوعاء ووعي الهوية، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، 2007، ص19.

وهو ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في توظيف التقنيات الحديثة

لصالح الجماعات المسلحة، التي تبث وتنشر الرعب والخوف من خلال ما تقدم عليه من جرائم بشعة كالذبح والحرق والقتل الجماعي، وغيرها من الأساليب الذي تضج بها المواقع الالكترونية ووسائل الإعلام المختلفة، وهو ما عدته المؤسسات التحليلية قوة ناعمة لخلق مجتمع الخوف والرعب لتحقيق أهداف سياسية أكبر.

ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في توظيف التقنيات الحديثة لصالح الجماعات المسلحة، التي تبث وتنشر الرعب والخوف.

كما غرقت وسائل الإعلام في مستنقع من الأكاذيب وأنصاف الحقائق، التي وظفت في خدمة الصورة السياسية التي يرسمها المسؤول السياسي، سواء حركتَه مصالحه أم طبيعة ما تفرضه عليه المرحلة، ويطلق أصحاب النظريات على أساليب حرية الدعاية التي أنحدر إليها الإعلام الأمريكي، ما يعرف باللجوء إلى (القوة الناعمة ـ soft Power)، وهي القدرة على الحصول على ما تريده عبر إقناع الآخرين باحتضان أهدافك، وتحقيق ما دعتك إليه مصالحك، في مقابل (القوة الصلبة ـ Hard Power) وهي اللجوء إلى استخدام أساليب الضغط الاقتصادي والقوة العسكرية لإجبار الآخرين على الرضوخ والإذعان، بحسب رأي البيت الأبيض والبنتاجون.

كما إن الحرب ضد الإرهاب أو من أجل الديمقراطية تقتضي استعمال (القوة الذكية)، أي الناعمة والصلبة بحسب مدى قرب الطرف الآخر أو بعده، وتصنيفه كعدو أو صديق، طبقاً للمقولة السائدة كل شيء مباح في الحب والحرب، لذا فأن العالم يشهد الآن واحدة من أشرس المعارك التي تستعمل فيها (القوة الناعمة) لخدمة أهداف سياسية، لأن الإعلام سياسي بطبيعته، لأنه عرضة للتأثير في الصراعات السياسية داخل الدولة الواحدة.

كما أن المؤسسات الإعلامية تشكل نتاجاً طبيعياً للمجتمعات التي تتشكل فيها، وعندما لا تعكس المؤسسات والقوانين والممارسات الإعلامية واقع المجتمعات، التي نشأت فيها تبدو كأطفال لا يشبهون أهاليهم، فتظهر الشكوك حول شرعيتهم، كما يقول ذلك مأمون فندي في كتابه حروب كلامية[5]، والتخويف الذي تزرعه وسائل الإعلام في نفوس المتلقين، وثقافة الخوف مرتبطة بالتخويف، تأتي وسائل الإعلام في وقتنا الراهن على رأسها، في تعميم المخاوف الحقيقية أو الوهمية بين الناس، وفي تضخيمها إلى الحد الذي لا يرون معه من يحميهم منها غير السلطة ذاتها، وهذه الثقافة

(5) مأمون فندي، حروب كلامية، ترجمة: تانيا ناجية، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2008.

لها محطاتها، القديمة والحديثة / الأنظمة والسلطات التي زرعت الرعب، وتلك التي لا تزال تزرعه في فضاء سلطتها، كثيرة، ولها أوصاف مصنفة: استبدادية أو تسلطية، شمولية أو دكتاتورية... الخ، وهي كلها أوصاف تعني (القدرة على توزيع الخوف، والكفاءة في توزيع العقاب) والانتقال من التوعية بالمخاطر إلى التخويف منها، لتحقيق الهدف المنشود.

يقول الدكتور (محمد عابد الجابري) في كتابه المسألة الثقافية (لم يعد إخضاع الأبدان شرطاً لإخضاع النفوس، ومع تحوّل العالم إلى قرية كونية، بل أصبحت شاشة بحجم كف اليد، وطغيان تكنولوجيا المعلومات الرقمية، وتم استثمار التقنيات الرقمية الحديثة في المجالين العسكري والإعلامي، ووظفت تكنولوجيا الاتصال والإعلام في التأثير في المتلقي وتدمير معنوياته من خلال حروب الأعصاب والحرب النفسية.

فلم تعد وسائل قتل البشر وتدميرهم نفسياً وصحياً حكراً على تقنيات الأسلحة، التي ترصد لها الدول ميزانيات مالية ضخمة طبقاً للدور والهدف الذي يخطط أن تلعبه، فتقنيات الاتصال والإعلام أضحت مستخدمة في الحروب الأخيرة التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية، لإخضاع الدول التي تخالف نهجها وسياستها لهيمنتها ونفوذها، وكشفت أن نفقات الإعلام والاتصال في الحروب تعادل نفقات وسائل القتال الميدانية مثل الدبابة والطائرة والمدفع.

ويكشف عالم اللسانيات والمفكر الأمريكي (ناعوم تشومسكي) في مقاله «استراتيجيات التحكّم والتوجيه العشر»، التي تعتمدها دوائر النفوذ في العالم للتلاعب بجموع النّاس وتوجيه سلوكهم، والسيطرة على أفعالهم وتفكيرهم في مختلف بلدان العالم، مستنداً في مقاله إلى «وثيقة سريّة للغاية» يعود تاريخها إلى 1979، وتمّ العثور عليها سنة 1986عن طريق الصدفة، وتحمل عنوانا مثيراً «الأسلحة الصّامتة لخوض حرب هادئة»، وهي عبارة عن كتيّب أو دليل للتحكّم في البشر وتدجين المجتمعات والسيطرة على المقدّرات، ويرجّح المختصّون أنّها تعود إلى بعض دوائر النفوذ العالمي، التي عادة ما تجمع كبار الساسة والرأسماليين والخبراء في مختلف المجالات، وتناول في مقاله:

اولاً: استراتيجية الإلهاء والتسلية: عنصر أساس لتحقيق الرقابة على

المجتمع، عبر تحويل انتباه الرأي العام عن القضايا المهمة والتغيرات التي تقررها النخب السياسية والاقتصادية، مع إغراق النّاس بوابل متواصل من وسائل الترفيه، في مقابل شحّ المعلومات وندرتها، وهي استراتيجية ضرورية أيضاً لمنع العامة من الوصول إلى المعرفة الأساسية في مجالات العلوم والاقتصاد وعلم النفس وعلم الأعصاب، وعلم التحكم الآلي حافظوا على اهتمام الرأي العام بعيداً عن المشكلات الاجتماعية الحقيقية، جعلوه مفتونا بمسائل لا أهمية حقيقية لها، وأبقوا الجمهور مشغولاً لا وقت لديه للتفكير، وعليه العودة إلى المزرعة مع غيره من الحيوانات.

ثانياً: استراتيجية افتعال الأزمات والمشكلات وتقديم الحلول: إذ يسمّى هذا الأسلوب المبتكر «المشكلة/ التّفاعل/ الحلّ" يبدأ بخلق مشكلة، وافتعال «وضع مّا» الغاية منها انتزاع بعض ردود الفعل من الجمهور، بحيث يندفع الجمهور طالباً لحلّ يرضيه، على سبيل المثال: السّماح بانتشار العنف في المناطق الحضرية، أو تنظيم هجمات دموية، حتى تصبح قوانين الأمن العام مطلوبة حتّى على حساب الحرية. أو: خلق أزمة اقتصادية يصبح الخروج منها مشروطاً بقبول الحدّ من الحقوق الاجتماعية وتفكيك الخدمات العامّة، ويتمّ تقديم تلك الحلول المبرمجة مسبقاً، ومن ثمّة، قبولها على أنّها شرّ لا بدّ منه.

ثالثاً: استراتيجية التدرّج: لضمان قبول ما لا يمكن قبوله يكفي أن يتمّ تطبيقه تدريجياً على مدى عشر سنوات، بهذه الطريقة فرضت ظروف اقتصاديّة واجتماعيّة مثّلت تحوّلا جذريّا كالنيوليبراليّة وما صاحبها من معدلات البطالة الهائلة والهشاشة والمرونة، العديد من التغييرات التي كانت ستتسبّب في ثورة إذا ما طبقت بشكل وحشيّ، يتمّ تمريرها تدريجيّا وعلى مراحل.

رابعاً: مخاطبة الجمهور على أنّهم قصّر أو أطفال في سنّ ما قبل البلوغ: معظم الإعلانات الموجّهة للجمهور العريض تتوسّل خطاباً وحججاً وشخصيات، أسلوباً خاصاً يوحي في كثير من الأحيان، أنّ المشاهد طفل في سنّ الرضاعة أو أنّه يعاني إعاقة عقلية، كلّما كان الهدف تضليل المشاهد، إلا وتمّ اعتماد لغة صبيانية، «إذا خاطبت شخصاً كما لو كان في سنّ 12 عند ذلك ستوحي إليه أنّه كذلك، وهناك احتمال أن تكون إجابته أو ردّ فعله العفوي كشخص في سنّ 12.

خامساً: مخاطبة العاطفة بدل العقل: التوجّه إلى العواطف هو الأسلوب الكلاسيكي لتجاوز التحليل العقلاني، وبالتالي قتل ملكة النقد، فضلاً عن استعمال السجل العاطفي يفتح الباب أمام اللاوعي ويعطّل ملكة التفكير، ويثير الرّغبات أو المخاوف والانفعالات.

سادساً: إغراق الجمهور في الجهل والغباء: لابدّ من إبقاء الجمهور غير قادر على فهم التقنيات والأساليب المستعملة من أجل السيطرة عليه واستعباده، يجب أن تكون نوعية التعليم الذي يتوفّر للمستويات التعليميّة الدنيا سطحيّاً، بحيث تحافظ على الفجوة التي تفصل بين النخبة والعامّة، وأن تبقى أسباب الفجوة مجهولة لدى المستويات الدنيا.

سابعاً: تشجيع الجمهور على استحسان الرداءة: تشجيع العامّة على أن تنظر بعين الرضا إلى كونها غبيّة ومبتذلة وغير متعلّمة.

ثامناً: تحويل مشاعر التمرّد إلى إحساس بالذّنب: دفع كلّ فرد في المجتمع إلى الاعتقاد بأنّه هو المسؤول الوحيد عن تعاسته، وذلك بسبب عدم محدوديّة ذكائه وضعف قدرته أو جهوده، وهكذا، بدلاً من أن يثور على النظام الاقتصادي يحطّ الفرد من ذاته ويغرق نفسه في الشّعور بالذنب، ممّا يخلق لديه حالة اكتئاب تؤثر سلباً على النشاط، ودون نشاط أو فاعليّة لا تتحققّ الثورة.

تاسعاً: معرفة الأفراد أكثر من معرفتهم لذواتهم: على مدى السنوات الـ 50 الماضية، نتج عن التقدّم السّريع في العلوم اتّساع للفجوة بين معارف العامة، وتلك التي تملكها وتستعملها النّخب الحاكمة، فمع علم الأعصاب وعلم الأحياء وعلم النفس التطبيقي وصل «النظام العالمي» إلى معرفة متقدّمة للإنسان، سواء عضويّا أو نفسيا، وتمكّن «النظام» من معرفة الأفراد أكثر من معرفتهم لذواتهم، وهذا يعني أنه في معظم الحالات، يسيطر «النظام» على الأشخاص ويتحكّم فيهم أكثر من سيطرتهم على أنفسهم.

وعليه تلخصت استراتيجية الولايات المتحدة في العراق بعد غزوه واحتلاله لتهيئة البيئة المناسبة للتقسيم من خلال مجموعة من الإجراءات أبرزها: الخصخصة بواسطة القوة العسكرية، إذ الغي القرار رقم (12) الصادر عن الحاكم المدني بول بريمر، والذي بدأ تطبيقه في 7 حزيران 2003، كافة

الرسوم والجمارك وضرائب الاستيراد ورسوم الترخيص ورسوم أخرى شبيهة على كافة السلع التي تدخل أو تخرج من العراق. . . النتائج فكانت كالتالي: ارتفاع في معدلات البطالة والنهب المنهجي بواسطة الشركات المتعددة الجنسيات، فضلاً عن انتشار الفساد بمعدل غير مسبوق، وطغيان اقتصاد الكسب غير المشروع المقتصر على المنطقة الخضراء، فضلاً عن الترويج لفكرة الطائفية وتكريس مصطلحاتها في الخطاب الإعلامي الأمريكي.

وختاماً، فإن المشروع الأمريكي الذي أندرج في أدبيات خطاب الساسة الأمريكان تحت عنوان الشرق الأوسط الكبير، والذي ترجم عملياً باحتلال دولتين إسلاميتين هما أفغانستان والعراق، يخفي نوايا وأطماع كبرى لا تنتهي بهذا العنوان، وأن خارطة الطريق التي طبختها المطابخ الأمريكية حسبما يتجلى في الواقع العملي، لم تكن مختصرة ومحددة للمشكل والصراع الفلسطيني الصهيوني، وإنما للعالم بأسره وظهرت بوادرها في العراق، وأنها أُعدت منذ ربع قرن، ، ويتحدث (نعوم تشومسكي) عن الكيفية التي يؤبلس فيها العدو، ويصنع الخوف بغية وضع الإنسان في وضع يندفع فيه للدفاع عن نفسه.